رفرز ورأيه فى الاحلام

بقلم الاستاذ حامد عبد القادر

أستاذ علم النفس بكلية أصول الدين

ولد وليم هالس رفرز رفرز(١) فى مارس سنة ١٨٦٤ من أسرة نبيلة ، اشتغل عدد كبير من أفرادها فى وزارة البحرية الانجليزية ، وكان لهم صيت ذائع فى هذه المهنة ؛ وربما كان هذا سبباً فى ولع رفرز هذا بالضرب فى الأرض ، وشغفه بالاطلاع على أحوال الشعوب المختلفة ، ودراسة طبائعهم وتقاليدهم المتنوعة .

نشأ رفرز نشأة علمية ، وتلقى دروسه الأولى فى مدارس : برايتن ، وتنبردج ، وكمبردج من بلاد الانجليز ؛ وربما يدلنا على ذكائه وحسن استعداده للمعرفة أنه ألقى أول محاضرة وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وأنه حصل على درجة بكالوريوس فى الطب من جامعة لندن وهو فى الثانية والعشرين ، فكان بذلك أصغر من حصلوا على هذه الدرجة فى المستشفى الذى انتسب إليه .

بعد ذلك بسنتين حصل على درجة أستاذ فى الطب ، وفى السنوات التالية قام برحلات متعددة إلى أمريكا واليابان وغيرها ، وتولى وظائف طبية مختلفة برهن فيها على كفايته وجدارته .

وفى سنة ١٨٩٢ سافر إلى ألمانيا ، وسمع محاضرات كثير من مشاهير أطبائها النفسيين ؛ ولا بد أنه قد تأثر بغزارة مادتهم ، وأعجب بمعارفهم ، ولا سيما فى علم الطب النفسانى ، لأنه بعد أن عاد إلى انجلترا عقد العزم على أن يقضى أكبر جزء ممكن من أوقاته فى دراسة علم النفس النظرى والتجريبى وعلاقته بالطب .

بعد ذلك أخذت شهرته فى الذيوع ، حتى صار فى وقت من الأوقات أستاذا فى ثلاث من دور العلم الكبرى هى : مستشفى جاى ، وجامعتا لندن وكمبردج ، وإليه يرجع الفضل فى إنشاء قسم لعلم النفس التجريبى بجامعة لندن ، ويعتبر أول قسم من نوعه أنشىء فى انجلترا .

لم تزل معارف رفرز فى الازدياد ونجمه فى الصعود ، حتى صار عضواً فى الجمعية الملكية (٢) وأصبح أحد الأفذاذ الذين يعتبر كل منهم حجة فى مادة كرس حياته للتوسع فى بحثها ، بل إن الدكتور رفرز كان يفضل غيره من هؤلاء العلماء بغزارة معارفه فى مواد عديدة ، منها :

[1] William Halse Rivers Rivers [2] Fellow of the Royal Society.

علم الطب ووظائف الأعضاء ، وعلم النفس بجميع فروعه ، وعلوم الاجتماع ـ ولا سيما علم الأجناس البشرية .

قامت الحرب العظمى ، واستطار شررها ، وعمى وطيسها ، وأصيب فيها من أصيب ، فأنشئت مستشفيات لعلاج الجنود المصابين الذين ذهبت عقولهم فى ساحات القتال ، فكانت معارف رفرز وتجاربه وأبحاثه فى علم النفس وعلوم الاجتماع خير ما يجعل منه أهلا للاشتغال بهذه المستشفيات ، وهذا ما وقع بالفعل ، فقد منح الدكتور رفرز الوسام الملكى من الجمعية الملكية سنة ١٩١٥ تقديرا لأعماله ، ثم انتدب مع غيره للاشتغال بمستشفى الحرب الذى أقيم ببلدة (مجهل Maghull) على مقربة من ليفربول ، وفى سنة ١٩١٦ انتدب للاشتغال بالمستشفى الحربى بأدنبرا ، وفى سنة ١٩١٧ عين مستشارا طبياً فى الأحوال العقلية بوزارة الطيران الملكية البريطانية .

وبتولى معالجة هؤلاء المرضى اتسح أمامه المجال للتوسع فى علم النفس العلمى ، وتوافرت لديه التجارب المتعددة للتحقق من مبادىء فرويد ، وقواعد علم النفس التحليلى ، ولمعرفة علاقة التطورات العقلية بالتطورات المخية العصبية ، وقد أعدته هذه التجارب وتلك الأبحاث لأن يكون من أكبر علماء النفس لا فى انجلترا فحسب ، ولكن فى العالم كله ؛ ولا غرو فان مؤلفاته المتعددة القيمة ، ومحاضراته التى ملأ بها بلاد الانجليز ، وآراءه المنتشرة فى بطون كتب علم النفس ، وتجاربه التى قام بها ووصفها وصفاً دقيقاً فى المجلات العلمية ، كل هذه تشهد له بالفضل ، وعلو القدر .

وقد بلغ الدكتور رفرز قمة الشرف وغاية المجد ، حينما اختاره حزب العمال البريطانى البرلمانى لأن يكون عضوا فى البرلمان ممثلا لجامعة لندن ، وذلك سنة ١٩٢٢ ؛ ولكنه لم يلبث أن عاجلته منيته بعد ذلك ببضعة أشهر فتوفى مأسوفاً عليه ، فحزنت عليه الجمعية الملكية وأبنه أحد أعضائها الدكتور تشارلز ميرز بخطبة أثار فيها العواطف ، وأبكى فيها أصدقاء الفقيد ، وأبان فيها فضله ، وأظهر أعماله المجيدة ، وخلد تاريخه النبيل ، وقد ختم هذه الخطبة بقوله : « ليكن الفقيد لنا فى حياته ، ورجاحة عقله ، وميوله وعلومه الجامعة ، وفى شخصيته الكريمة المخلصة ، وفيما حاز من علم وشرف مثالا حسناً نقتدى به للوصول إلى غرضنا المشترك ، وغايتنا الوحيدة التى هى ترقية العلوم » .

هذه هى حياة الدكتور رفرز وصفناها لك على وجه الاجمال ، والآن نود أن نذكر لك خلاصة آرائه فى علم النفس على العموم ، وفى الأحلام على الخصوص ، فنقول :

إن التجارب العديدة التى قام بها رفرز وآخران (١) قد أثبتت له أن الحساسية الانسانية

[1] H. Head and G. Sherren.

نوعان : نوع يسمى الحساسية العامة الأولية (١)، وآخر يسمى الحساسية الظاهرية الدقيقة (٢). وقد ظهر له أن موضع الأولى هو طبقات الجلد الباطنية ، بينما أن موضع الثانية هو طبقات الجلد الظاهرية ، وإنما سميت الأولى أولية عامة لأنها أبسط وأوفى منزلة فى سلم الرقى ، يشترك فيها الانسان والحيوانات العليا والدنيا ، وسميت الثانية ظاهرية لأن موضعها طبقات الجلد العليا وتظهر فى الحيوانات العليا ولا سيما الانسان؛ هذا إلى أنه من الممكن إدراكها إدراكا تاماً ، ووصفها وصفاً دقيقاً ، وتحديد موضعها بالضبط ؛ ومن خواصها : عدم ظهور أثرها عند المرض ، وفى الأحوال غير العادية ، وأثناء عمل بعض العمليات الجراحية .

كان لهذه التجارب آثارها فى آراء رفرز فى المجموع العصبى والعقل ، فهو يرى أن الرابطة وثيقة بين هذين ، لدرجة أنه من الممكن تفسير أية حادثة نفسية بارجاعها إلى أسباب جثمانية ، وبيان مشابهتها لحادثة جسمية ؛ فالعقل تابع للمجموع العصبى فى تطوره وأحواله على العموم؛ فاذا كل هذا كل ذلك؛ وأى نقص أو خلل فى تكوين الأول ينشأ عنه ولا محالة نقص أو خلل فى أحوال الثانى ؛ وبذلك يظهر ارتباط علم النفس بعلم وظائف الأعضاء تمام الارتباط ، وتوقف سلوك العقل على أحوال المجموع العصبى تمام التوقف .

هذه هى النظرية الأساسية التى بنى عليها رفرز آراءه فى العقل ومظاهره .

فالعقل عنده كالمخ ، والمجموع العصبى يتكون من طبقات ظاهرية عليا، وأخرى سفلى ؛ فالعليا تكونت على مر الأجيال والقرون ؛ وكانت نتيجة للتطور الانسانى ، وتدرجه فى سلم الرقى ، أما الطبقات السفلى فهى الطبقات الأولية التى توجد فى الانسان والحيوان معاً ؛ وإن كانت تختلف فى الحيوانات تعقدا ورقياً باختلاف منزلتها من السلسلة الحيوانيه .

والسلوك الانسانى بناء على هذه النظرية نوعان: (١) سلوك راق دقيق خاضع للفكر الراقى والروية ، وهو الذى تضبطه طبقات العقل العليا ، وترتبط بطبقات المخ الظاهرية الدقيقة الحساسية ، (٢) سلوك ساذج ابتدائى ، وهو المتصل بطبقات العقل السفلى الخاضع لتصرفات الطبقات السفلى من الجهاز العصبى .

ويقول رفرز بتطور الغرائز وانقسامها إلى قسمين: أولية وعليا ، أو Protopathic و Epicritic ؛ فالأولية هى التى يكون الغرض منها حفظ الذات والنسل ، كغرائز البحث عن الطعام والخوف والمقاتلة والغريزة التناسلية ، ومن الغرائز العليا الغرائز الاجتماعية ، وأرقاها غريزة حب الاختلاط ، التى ينشأ فيها نزعات ثلاث هامة هى : التقليد ، والمشاركة الوجدانية،

[1] Protopathic Senbilility.
[2] Epicritic Sensibility.

والاستهواء ؛ فالتقليد يمثل الناحية النزوعية لغريزة حب الاختلاط ، والمشاركة الوجدانية تمثل ناحيتها الوجدانية ، والاستهواء يمثل الناحية الفكرية أو الادراكية ؛ ويرى الدكتور رفرز أن هذه النزعات الثلاث ضرورية لتقدم النوع الانسانى ؛ ورقى العقل البشرى من نواحيه الثلاث : الارادية ، والوجدانية ، والادراكية .

ومن آراء رفرز ـ التى بذل مجهوداً كبيراً فى الدفاع عنها ، والبرهنة على صحتها ـ أن هناك علاقة متينة ، ورابطة قوية بين طبقات المجموع العصبى العليا من ناحية ، وبين طبقات العقل العليا من ناحية ثانية ، وبين الغرائز الاجتماعية والعواطف من ناحية ثالثة ، وبين السلوك الانسانى الراقى من ناحية رابعة ؛ فهذه الأربعة مرتبطة تمام الارتباط ، وكل منها يسمى فى اصطلاح رفرز Epicritic .

كما أن طبقات المجموع العصبى ، وطبقات العقل السفلى ، والغرائز الدنيا وما يتبعها من وجدانات وانفعالات ، والسلوك الانسانى الانبعاثى الشهوانى ؛ كل هذه شديدة الاتصال بعضها ببعض ، وتسمى « Protopathe » .

بعد أن يثبت رفرز أن للعقل ناحيتين : عليا ، وسفلى ؛ وبعد أن يبين علاقة هاتين الناحيتين بالغرائز ، ويثبت ارتباطهما بالمجموع العصبى ، يتوسع فى بحث السلوك الانسانى : فيقسمه إلى : راق ، وساذج ؛ فالأول هو الخاضع لذكاء الانسان وغرائزه الاجتماعية المهذبة ، ويتجلى بأجلى مظاهره فى الانسان اليقظ المفكر المدبر ، الذى يفكر بعقلية الرجل المهذب ، ويخضع غرائزه الذاتية للغرائز الاجتماعية ، ويسعى فى إدخال السرور على غيره ؛ كما يسعى فى سرور نفسه .

أما الثانى فهو الخاضع للغرائز الدنيا ، وأظهر ما يكون فى الانسان المتوحش أو الأنانى الغارق فى لذاته الصبيانية ، الساعى فى إرضاء شهواته ، والحصول على رغباته بجميع الوسائل الممكنة .

وإن الانسان العاقل ليسلك المسلك الأول ـ وإن كلفه المشاق ، وجلب عليه المضار ـ ؛ ولا يسلك المسلك الثانى إلا كل غر ضعيف التفكير ، حقير النفس ، أو ضعيف العقل ، أو سيء الفهم ؛ غير أن كثيراً من الناس يسلكون المسلكين ، ويطرقون النجدين ؛ ففى حالة الهدوء العقلى ، والسكون العصبى يسلكون الأول ؛ وفى الأحوال غير العادية يرجعون إلى الطبيعة الأولى ، ويتقهقرون إلى مرتبة السلوك الساذج ، ويسمى هذا فى اصطلاح رفرز « السلوك التقهقرى أو الرجوعى Regressive » ، ويبلغ السلوك التقهقرى غايته فى الأحوال غير العادية ـ كأثناء النوم ، أو التنويم المغناطيسى ، وعند الاضطرابات ، والأمراض العصبية .

ومن ذلك يتبين لك أن السلوك الراقى خاضع لما يسمى « العقل اليقظ » فى اصطلاح علماء النفس التحليلى ؛ أما السلوك التقهقرى فخاضع لما يسمى بـ « العقل الباطن »

فالدكتور رفرز يوافق الدكتور سيجمند فرويد وأتباعه على وجود ناحيتين للعقل : إحداهما ظاهرة يقظة ، والثانية باطنة فى حالة خمود أو سكون ، إلا أن هذين العالمين يختلفان فى أمور ، منها :

أولا — أن رفرز يتوسع فى محتويات العقل الباطن ، فلا يقصرها على التجارب التى كانت من نصيب المرء فى عهد طفولته ، بل يدخل فيها جميع التجارب والذكريات التى تنتقل من الشعور إلى اللاشعور — إما بنفسها وإما بكبتها — قصداً ، وذلك حيث يقول : « إن هذا العصر (أى عصر العقولة) صالح — بصفة خاصة — لأن يهيىء الفرص للتجارب الشعورية فتصير لاشعورية ، ولكن انتقال التجارب إلى عالم اللاشعور قد يحصل فى أى عصر من عصور الحياة الفردية ؛ وقد لفت الأنظار — إلى حد بعيد — حدوث هذه الظاهرة على أثر تجارب الحرب العظمى وفظائعها ... فقد شوهد — فى كثير من الأحوال — أن الجنود قد نسوا — تمام النسيان — حياتهم التى حيوها من قبيل الاصابة بإغماء شديد أو جهد عميق ، إلى أن وجدوا أنفسهم فى المستشفيات بعد الاصابة ببضعة أسابيع ، هذا مع أنهم كانوا أثناء جزء من هذه المدة — على الأقل — فى حالة شعور عادى على حسب الظاهر ؛ وأن ما حدث لهم أثناء هذه المدة قد يبقى مدفوناً فى عالم اللاشعور ، محجوباً عن عالم الشعور — شهوراً بل سنين متوالية — بحيث لا يمكن تذكر شىء منه إلا باحدى طرق التحليل النفسى ، كالتنويم المغناطيسى ، وتداعى المعانى المطلق »(١).

ثانياً — لا يشبه رفرز اللاشعور — كما يفعل فرويد وأتباعه — بحجرة أو مخدع يفصله عن الشعور فاصل ، له باب عليه رقيب (٢) ، يمنع محتويات اللاشعور من الدخول إلى حظيرة الشعور إلا إذا احتالت عليه ، وتزيت بغير أزيائها الحقيقية ، ولكنه يقول : إن للعقل طبقات ظاهرية عليا دقيقة ، وأخرى باطنية سفلى ساذجة — كما سبق شرحه — ، فالأولى هى التى تعمل وتظهر آثارها فى الأحوال العادية وقت اليقظة ، فاذا بطل عملها ، أو حيل بينها وبين وظائفها لسبب من الأسباب — كالاضطراب العصبى ، والنوم ، والتنويم المغناطيسى — حلت محلها الطبقات السفلى ، ويكون سلوك الانسان فى هذه الحالة خاضعاً لظاهرة خاصة تسمى التقهقر أو الرجوع « Regression » ؛ يريد بذلك الرجوع إلى الحياة الأولية البسيطة ؛ فتظهر التجارب الساذجة التى صادفها الفرد أو النوع فى حياته الماضية .

---

[1] See Instinct and The Unconscious P.P. 13-14. [2] Sensor.

ثالثا — أن رفرز لا يعنى بالغريزة الجنسية عناية فرويد وأتباعه بها ، فلا يقول كما يقول هؤلاء : إن الرغبات المكبوتة التى تظهر فى الأحلام ، والتى ينشأ عنها الأمراض العصبية والاضطراب العقلى هى ميول جنسية فى الغالب ؛ ولكنه يقول : إن أية تجربة مؤلمة — أيا كان نوعها — صالحة لأن تنتقل من الشعور إلى اللاشعور ، وتكون سبباً فى حلم أو مرض عصبى ، وفى هذا يقول — مشيراً إلى التجارب التى قام بها ، والحوادث التى شاهدها وهو يعالج بعض المصابين بأمراض عصبية أثناء الحرب العظمى — :

« فلدينا الآن من الأدلة العديدة ما يبرهن على أنواع الشلل ، وانقباض العضلات ، والخوف والذعر ، وغيرها من الأمراض التى كان يفسرها فرويد وأتباعه نتائج ميول جنسية مكبوتة ، تحدث كثيراً لأشخاص يظهر أن حياتهم الجنسية عادية ليس فيها شذوذ مطلقا ؛ وأنهم لم يكونوا بحالة غير عادية عرضة للهموم الجنسية التى نراها شائعة فى عصر الحضارة الحديثة ، وعلى الأخص بين طبقات المجتمع التى تتمتع بقسط أوفر من الراحة » .

ثم يقول بعد ذلك : « إذا نسى لنا أن نهتدى بهدى النتائج التى شاهدناها ، فمن الحق أن نقول : إن مظاهر بعض الأمراض السالفة الذكر وأعراضها ، تذهب وتختفى آثارها بدون تعرض لنقل عقد وجدانات ، أو وجدانات جنسية من اللاشعور إلى الشعور ، بينما أن أمراضا أخرى من النوع نفسه تبقى ولا تزول آثارها على الرغم من الوصول إلى أعماق نفس المريض ، والعثور على عقد رغبات جنسية وغير جنسية مكبوتة ، يرجع عهدها إلى ما قبل الحرب »(١) .

يريد رفرز بذلك أن يبرهن على أن كثيراً من الأمراض العصبية التى أصيب بها الجنود أثناء الحرب العظمى يرجع فى الغالب إلى كتم أفكار ووجدانات مؤلمة ، نشأت عن التجارب القاسية التى صادفها هؤلاء الجنود أثناء الحرب العظمى وأهوالها . وما لازمها من هياج واضطراب ومواقف خطيرة ؛ إذ كانوا يسمعون قصف المدافع ورعدها من حين لآخر ، ويرون انفجار القنابل وتبران القذائف على مقربة منهم ، ويشاهدون بأعينهم إخوانهم والموت يحصدهم حصدا فلا يبقى منهم ولا يذر ؛ وقد كان أعداؤهم يباغتونهم وهم فى خنادقهم فيبقون فيها طويلا بدون أكل ولا شرب ولا ضوء ، ولا سبيل إلى الاتصال بأقرانهم وقوادهم .

هذه التجارب القاسية التى وقعت لهؤلاء الجنود فى الماضى القريب — لا تجاربهم فى الماضى البعيد أيام الطفولة ، ولا وجداناتهم الجنسية المكبوتة — هى المسئولة فى نظر رفرز عن الأمراض العصبية وما يتبعها من الأمراض الجسمية التى أصابت هؤلاء الجنود ؛ والتى كانت

---

[1] See Instinct and The Unconscious P.P. 165-166.

سبباً فى كثير من الأحلام المزعجة التى كانوا يرونها وهم نائمون .

رابعاً — أن رفرز لا يقصر وظيفة الأحلام على تحقيق الرغبات المكبوتة بطريقة رمزية ، ولكنه يقول إن كثيراً من الأحلام يخضع للظاهرة السابقة — ظاهرة التقهقر — التى تخضع لها جميع الأحوال العقلية الشاذة تقريباً ؛ فالأحلام التى يعتبرها فرويد وأتباعه رموزاً لرغبات مكبوتة تعد فى رأى رفرز تجارب من النوع الذى يحصل للانسان فى عهد طفولته ، أيام أن كانت أفكاره أشبه شىء بالأوهام البسيطة الساذجة ، أو من النوع الذى حصل للانسان الأول ، أو لآبائه وأجداده فى أطوار حياتهم الأولى ؛ فاذا رأى الانسان فى نومه أنه يطير ، أو أن شجرة تتحرك نحوه ، أو أن ثعباناً يهاجمه ؛ فهذه الأحلام وما أشبهها ذكريات عن العصر الماضى عادت للانسان كما هى أو بتعديل بسيط أساسه امتزاج العناصر والحوادث بعضها ببعض امتزاجاً ناشئاً عن عدم التميز أو نقصه أو تداعى المعانى ، وهذه — كما ترى — من خصائص التفكير عند الأطفال والانسان المتوحش ، وهاك ما قاله رفرز فى هذا الصدد :

« وهناك من الأسباب الكثيرة ما يحملنا على الاعتقاد بأن الأحلام تمثل تجارب الطفولة الأولى ، وليس معنى ذلك أن موضوعات الأحلام مأخوذة من تجارب الطفولة الأولى ، ولكن معناه — على الأحرى — أن أية تجربة يمر بها الانسان تتشكل بحيث يكون ما فيها من وجدانات ، أو إدراكات ، أو نزعات ، أو أعمال أشبه شىء بوجدانات الطفولة وإدراكاتها ونزعاتها ؛ وظهور الأحلام بهذه الصفة فى دائرة الشعور يرجع بالطبع إلى زوال رقابة الطبقات العليا العقلية أو ضعفها أثناء النوم ، فحينئذ تظهر الطبقات السفلى إلى الطبقات العليا ، فيتسنى لها أن تظهر بمظهرها الطبيعى (الملائم لعصر الطفولة الفردية أو النوعية) ؛ فأوهام الأحلام وخيالاتها وخروجها عن قوانين المنطق ليست ناشئة عن تحول الرغبات المكبوتة بتلك الطريقة المنظمة التى يصفها فرويد ويعزوها إلى تداخل كائن شيطانى (الرقيب) ، وإنما هى — على الأحرى — نتيجة مباشرة لنشاط أنواع أخرى من أنواع السلوك العقلى كانت تمنعها من الظهور الطبقات العقلية العليا ، أو التجارب التى حصل عليها الانسان فى أدوار حياته اللاحقة لدور الطفولة » (١) .

هذا هو رأى رفرز فى الأحلام لخصناه لك ، وهو يقرب من رأى يونج (٢) العالم السويسرى الشهير الذى سنحدثك عنه فى عدد آخر إن شاء الله تعالى .

حامد عبد القادر

---

[1] See Instinct and The Unconsious P.P. 230-1.

[2] Dr. C. G. Jung. See McDougall's An Outline of Abnormal Psychology P.P.188